

وصف قلعة بني حماد من خلال المصادر العربية - دراسة مقارنة -
The description of the Banī Ḥammād Citadel through historical sources
- A comparative study-

جمال عناق*

جامعة الشيخ الشهيد العربي التبسي - تبسة - djamel.annak@univ-tebessa.dz

تاريخ النشر: 2024/12/31

تاريخ القبول: 2024/12/22

تاريخ الإستلام: 2024/03/20

الملخص

تحمل قلعة بني حماد، الواقعة في المسيلة (الجزائر)، قيمة تاريخية ورمزية كبيرة، باعتبارها عاصمة الدولة الحمادية. فمن خلال أوصاف المؤرخين والجغرافيين، والرحالة الذين زاروا قلعة بني حماد في العصور الوسطى، يمكننا الحصول على معلومات تاريخية قيمة حول الثقافات، والمجتمعات المختلفة التي عاشت في هذه المنطقة. فهذه النصوص التاريخية والجغرافية تقدم لنا رؤى حول الأماكن التي تمت زيارتها والأشخاص الذين تمت مقابلتهم والجوانب الثقافية والتاريخية لتلك المناطق. لذلك، تعتبر هذه المصادر مهمة لفهم تطور المجتمعات وتشكيل الهويات. كما أنها تقدم نظرة حول العلاقات بين الثقافات المختلفة. بالإضافة إلى ذلك، يمكن استخدام هذه الأوصاف لرسم خرائط حول تطور عمران القلعة، وطرق السفر وتحليل ديناميكيات العمران ومسارات الرحلات، مما يوفر فهما أعمق لمتغيرات المجال المناخية والعمرانية، والثقافية المرتبطة بأوصاف الرحالة والجغرافيون العرب.

الكلمات المفتاحية: قلعة بني حماد - الأوصاف - الحضارة - الجغرافيون - المؤرخون.

Abstract:

The citadel of Beni Hammad located in Msila- Algeria has significant historical and symbolic value as the capital of the Hammadid dynasty. Through the descriptions of historians, geographers and travelers who visited the fortress in the Middle Ages, we gain valuable historical insights into the cultures and societies that inhabited this region. These historical and geographical texts offer perspectives on the places visited, the people met as well as the cultural and historical aspects of these areas.

Therefore, these sources are crucial for understanding the development of societies and the formation of identities. They also provide insights into the interactions between different cultures. In addition, these descriptions can be used to map the architectural development of the fortress and travel routes and to analyze urban dynamics and travel patterns. This enables a deeper understanding of the climatic, urban and cultural variables associated with the Arab travelers' descriptions.

Keywords: Banī Ḥammād Citadel - Descriptions - Civilization - Geographers - Historians

* المؤلف المرسل

1. مقدمة

تعد قلعة بني حماد واحدة من أبرز المواقع الأثرية والتاريخية في الجزائر، إذ لها مكانة خاصة باعتبارها عاصمة الدولة الحمادية التي شملت حدودها بلاد المغرب الأوسط (الجزائر)، ومثلاً فريداً ونموذجاً للعمارة الإسلامية في العصر الوسيط. إن قلعة بني حماد بقيمتها التاريخية والرمزية جعلتها محط اهتمام المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب والأجانب على حد سواء منذ العصور الوسطى وحتى اليوم.

لقد تعددت المصادر التي تناولت القلعة، وتنوعت زوايا اهتمامها، حيث ركزت بعضها على موقعها الجغرافي الاستراتيجي الذي يربط بين مختلف المناطق، وعلى مساحتها الضخمة التي تعكس مكانتها السياسية والعسكرية. في حين سلطت كتابات أخرى الضوء على عناصرها المعمارية الفريدة، مثل المساجد والأسوار والقصور التي تبرز الإبداع الهندسي لتلك الفترة.

لم تقتصر هذه المصادر على الجانب المادي، بل امتدت إلى وصف الحياة الاجتماعية والثقافية داخل القلعة، ما يتيح رؤية شاملة حول التفاعل بين سكانها من مختلف الثقافات والطبقات الاجتماعية. كما أن النصوص الجغرافية والتاريخية تقدم وصفاً دقيقاً للأبعاد الاقتصادية والعمرانية التي عرفت ازدهاراً كبيراً في ظل الدولة الحمادية، مما يجعل القلعة شاهداً حياً على تطور المجتمعات وتفاعلها الحضاري.

هذا التنوع في المصادر والأوصاف يجعل دراسة قلعة بني حماد ليست مجرد استكشاف لمعالمها المادية، بل نافذة لفهم الديناميكيات التاريخية والاجتماعية والثقافية التي شكلت هوية المنطقة خلال القرون الوسطى.

- أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف:

- 1- تحديد نقاط الاتفاق والاختلاف بين أوصاف المؤرخين والجغرافيين والرحالة لقلعة بني حماد.
- 2- تقييم مدى دقة هذه الأوصاف.
- 3- استخلاص المعلومات التاريخية والثقافية التي يمكن الحصول عليها من هذه الأوصاف.

- إشكالية البحث:

تتمحور إشكالية البحث في السؤال التالي: ما هي المعلومات التاريخية والثقافية التي يمكن استخلاصها من مقارنة أوصاف المؤرخين والجغرافيين والرحالة لقلعة بني حماد.

- تساؤلات البحث:

يسعى هذا البحث للإجابة على التساؤلات التالية:

- 1- ما هي نقاط الاتفاق والاختلاف بين أوصاف المؤرخين والجغرافيين والرحالة لقلعة بني حماد؟
- 2- ما مدى دقة هذه الأوصاف؟
- 3- ما هي المعلومات التاريخية والثقافية التي يمكن استخلاصها من هذه الأوصاف؟

- منهجية البحث:

يعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي والمقارن، حيث سيتم جمع المعلومات من المصادر التاريخية والجغرافية، ثم تحليلها وتفسيرها. لقياس درجة الاتفاق والاختلاف بين الأوصاف المختلفة.

2. أهمية ودور المصادر العربية في التأريخ المجالي :

لعب المؤرخون والجغرافيون والرحالة العرب أدوارا مهمة في مجال أدب السفر والرحلة والاكتشاف. و لا تقتصر حسابات الرحلة على التحليل النصي فحسب، بل لها أيضا جوانب تمثيلية وفعلية وفكرية. يجب أن تأخذ في الاعتبار فهي ترتبط بتفسير الماضي من الناحية التاريخية، إذ تعد هذه السجلات كمصادر تاريخية قيمة توفر معلومات حول منطقة جغرافية معينة خلال فترة تاريخية. لأنها تنقل انطباعات وتجارب بشرية في الزمان والمكان، مما يساهم في التعرف على البلدان والمدن، خاصة إذا وظفت هذه المعلومات من طرف هؤلاء المؤرخين من خلال حيادهم عند كتابة ملاحظاتهم، مما يعزز قيمة هذه المصادر الخاصة بهم⁽¹⁾.

إن هذه الأدبيات والرؤى من وجهات نظر تاريخية وجغرافية واجتماعية، سيجعلها ذات صلة بدراسات الثقافة والهوية العربية. يكشف عنها تصورات المؤلفين حول الأماكن التي زاروها والمجتمعات التي إلتقوا بها. وفي موضوعنا هذا نجد العديد من المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب وحتى الأجانب من كتب عن قلعة بني حماد منذ العصور الوسطى، وقد تنوعت هذه المصادر في وصفها للقلعة، حيث ركز بعضها على موقعها وحجمها، بينما ركز البعض الآخر على بنائها وعمارتها، وركز البعض الآخر على ثقافتها ومجتمعها. وهذا ما سنتناوله في العنصر الثاني من حيث الاتفاق والاختلاف في هذه الأوصاف.

3. أوصاف الجغرافيين والمؤرخين والرحالة لقلعة بني حماد:

إن تحليل الوصف الذي قدمه المؤرخون والجغرافيون والرحالة حول قلعة بني حماد، يكشف عن تباين في التفاصيل والتأكيد على جوانب معينة. يُلاحظ أن المؤرخين غالبا ما يركزون على الجوانب التاريخية والسياسية للقلعة، بينما سيتناول الجغرافيون شكل الموقع والبيئة المحيطة به، و في الوقت نفسه يقدم الرحالة وصفا شاملا يجمع بين العناصر التاريخية والجغرافية والثقافية.

وفي هذا المجال أولى المؤرخون والجغرافيون والرحالة العرب والأجانب اهتماما خاصا بقلعة بني حماد منذ عهدها الأولى، وقد تنوعت هذه المصادر في وصفها للقلعة ، ومن بينها نذكر:

1 Abd, El-Raouf., Reem, Wagdy, Moustafa, Kamel. "Travel Literature Illustrations and Topography and Their Role in Documenting the Islamic Arabic Identification and the Geopolitical Alterations of Jerusalem City." null (2021):79-109. doi: 10.1007/978-3-030-14869-0_6.

1.3 أوصاف الجغرافيين لقلعة بني حماد: الموقع والتخطيط العمراني:

أشادت المصادر الجغرافية بمكانة وحصانة القلعة ومناعتها الطبيعية، فقد صورها البكري الذي لم يزر بلاد المغرب بقوله: " وهي قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة تحضرت"⁽²⁾ ثم أفادنا بأنها الموقع الذي تحصن فيه أبو يزيد لما طارده الخليفة المنصور بالله⁽³⁾.

أما الإدريسي الذي زار بلاد المغرب، فقد كان أكثر دقة من البكري في حديثه عن الحصانة الطبيعية لهذه القلعة إذ وصفها في مناسبة أولى بقوله: " وهي في سند جبل سامي العلو. صعب الارتفاع... ويسمى تاقريست. وأعلى هذا الجبل متصل ببسيط من الأرض ومنه ملكت القلعة"⁴ و أيضا قال: ((وهي متعلقة بجبل عظيم مطل عليها وقد احتوى سورها المبني على جميع الجبل المذكور طولا وعرضا وأمامها في جهة الجنوب أرض سهلة متصلة الإنفراج لا يرى الناظر فيها جبلا عاليا ولا شرفا مطلا إلا على بعد منها وعلى مسير أربع مراحل يرى جبلا لا تبين"⁵.

أما مؤلف الاستبصار فقد وصفها بقوله: " وهي مدينة عظيمة قديمة أزلية على نظر عظيم كثير الزرع وجميع الخيرات، وهي في جبل عظيم، وهي حصينة منيعة لا تمكن بقتال."⁶

وتبرز مظاهر هذه الحصانة الطبيعية في كونها قد أقيمت فوق جبل معاضيد إحدى جبال سلسلة الحضنة، وتحديدا فوق السطح الجنوبي لجبل تاقريست الذي يصل ارتفاعه إلى 1418 م وكانت محاطة بعدد من المرتفعات من كل الجهات، إذ كان يحدها من جهة الغرب جبل القرنين 1190 م، ومن جهة الشرق سلسلة من المرتفعات الجبلية يتراوح معدل ارتفاعها بين 1000 و 1400 م وهي جبل عروقة، قوية، سيدي صاحب كوركاب، شكرة الحمرة وشط قيزر. وتحيط بها من جهة الشمال سلسلة جبال القبائل والبابور والبيبان. أما من جهة الجنوب فهي تشرف على سلسلة جبال الحضنة، لكن هناك طريق ملتوية داخل ممر يفصل بين جبل رحمة وجبل زروقة، كما يوجد ممر ضيق سهل المراقبة بين جبل رحمة والقرنين يمكن من الوصول عبر باب الجنان إلى المسيلة، وهناك أيضا ممر يمكن عبر باب الأقواس من الوصول إلى برج ريدير والشمال الشرقي. أقيمت القلعة فوق حمادة معدل ارتفاعها 950 م وينزل إلى 550 م على مستوى شط الحضنة، وتمثل بذلك حصنا منيعا، ويسهل الدفاع عنه والتصدي منه إلى الأعداء. كما أنها بعيدة عن البحر وعن هجمات القبائل

2 البكري، أبي عبيد الله، المسالك والممالك، ت زينب الهكاري، مطبعة الرباط، 2012، ص 133.

3 المصدر نفسه، ص 133.

4 الإدريسي، أبي عبد الله، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مجلد 1، ط 1، عالم الكتب، بيروت 1989، ص 255.

5 المصدر نفسه، ص 261.

6 صاحب الاستبصار، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، ت زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية، بغداد ص 167.

البدوية بالجمال. وتتمثل مصادر المياه في وادي فرج الذي يجري من جهة الشرق ثم يتفرع إلى جداول صغيرة تساعد على الري. كما يمكن جلب الماء من القمم المجاورة للقلعة.⁷

ولم تكن هذه الاعتبارات الإستراتيجية لتغيب عن قبيلة صنهاجة، فموقع هذه القلعة الجديدة مزايًا استراتيجية تفوق ما اختصت به مدينة أشير⁸. و لكل هذا، قرّر حمّاد الخروج تدريجيا من أشير العاصمة القديمة التي بدت بعيدة عن جبال الأوراس معقل قبيلة زناتة وعرضة لهجمات البدو المستقرين بالسباسب، واختار الموضع الذي انهم فيه أبا يزيد سنة 335هـ/ 947 م لتأسيس مدينة القلعة كنقطة ارتكاز ثانية أشدّ حصانة أمام طموحات الزناتيين، والإعلان عن استقلاله عن الزيريين بالقيروان وولائه للعباسيين بالمشرق في 405هـ / 1015م ولأنها تأسست منذ البداية لتكون عاصمة لمملكة بني حمّاد، تميزت القلعة بشدّة التحضر والمعالم المتقنة البناء والبهية المنظر. فقد صورها صاحب الاستبصار بقوله " : ومدينة القلعة من أكبر البلاد قطرا ... وأحسنها قصورا ومسكن⁹. " وقال عنها في موضع آخر: " ولبني حمّاد بالقلعة مبان عظيمة وقصور منيعة متقنة البناء عالية السناء منها قصر يسمّى بدار البحر، وقد وضع في وسطه صهريج عظيم تلعب فيه الزوارق، يدخله ماء كثير من ماء مجلوب من بعد. وهذا القصر مشرف على نهر كبير وفيه من الرخام والسواري ما يقصر عنه الوصف، وفيه قصور غير هذا ومبان عجيبة، وفيها آثار للأول عجيبة¹⁰ .

يبدو أن الموقع الجغرافي من جهة ودور العاصمة من جهة أخرى هما اللذان جعل القلعة تصبح محطة أساسية يتجه نحوها عدد هام من الطرقات الرئيسية الأفقية والعمودية. فابن حوقل الذي زار بلاد المغرب بين 336هـ / 947 - 951م . واعتمد في كتابه "صورة الأرض" أساسا على المعلومات وليدة المشاهدة أو المكتوبة وبدرجة أقل على المعلومات المنقولة¹¹ ، قد وصف لنا طريقا أولا من القيروان إلى تاهرت وفاس عبر المسيلة وطريقا ثانيا من القيروان إلى المسيلة على بلاد كتامة وطريقا ثالثا من المسيلة إلى إفريقية¹² . ولئن كانت هذه الطرقات تمرّ عبر الموقع الذي تأسست فيه القلعة أو غير بعيد عنه، فإنه بعد تأسيسها أصبحت الطرقات الرئيسية تتجه نحوها أو تمرّ منها على حدّ ما صورّه لنا البكري¹³ .

2.3 أوصاف المؤرخين للقلعة الحمادية المؤرخ ابن خلدون أنموذجا:

يصف ابن خلدون قلعة بني حماد بأنها كانت مدينة عظيمة، تضم العديد من المباني الدينية والعسكرية والتجارية، منها المسجد الجامع، والقصر السلطاني، وسوق الجمعة، والحمامات العامة. كما يذكر أنها كانت مركزا مهما للتعلم

7 مراد عرعار، قلعة أبي طویل (بني حمّاد) من خلال ثلاثة مصادر جغرافية (البكري، الإدريسي، كتاب الاستبصار) كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، / <https://www.academia.edu/> ص 03.

8 شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج2، ت محمد مزالي، الدار التونسية للنشر. 1983، ص 93.

9 صاحب الاستبصار، المصدر السابق، ص 168.

10 المصدر نفسه ، ص 167.

11 ابن حوقل، صورة الأرض، ليدن، 1927، ص 66 - 83.

12 المصدر نفسه، ص 84 - 90.

13 راجع ما ذكره البكري صفحات 133-138-140.

والتعليم.)) ثم بادر حمّاد بن بلكيّ من بعد ذلك مكانا لبناء مدينة، فاخترتها بينهم ونزلها ووسع خطتها واستبحر عمرانها. وكانت حاضرة لملك آل حماد...)). ((...)). ونقل إليها أهل المسيلة وأهل حمزة وخريهما. ونقل جراوة من المغرب وأنزلهم بها، وتم بناؤها وتمصّرها على رأس المائة الرابعة. وشيد من بنيانها وأسوارها واستكثر فيها من المساجد والفنادق، فاستبحرت في العمارة واتسعت بالتمدّن. ورحل إليها من الثغور والقاصية والبلد البعيد طلاب العلوم وأرباب الصنائع لنفاق أسواق المعارف والحرف والصنائع بها.))¹⁴

((...)). وكان المنصور هذا جماعة مولعاً بالبناء، وهو الذي حضر ملك بني حماد، وتأنق في اختطاط المباني وتشيد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين. فبنى في القلعة قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السلام...)).¹⁵ ويصف ابن بطوطة قلعة بني حماد بأنها مدينة جميلة، ذات أسواق عامرة، وشوارع واسعة، ومنازل فخمة. كما يذكر أنها كانت مركزاً مهماً للتجارة والصناعة.

4. الدور الاقتصادي والحضري لقلعة بني حماد:

1.4. قلعة بني حماد: مركز اقتصادي نشط ووجهة تجارية بارزة:

إذا سلمنا بما أفادتنا به نصوص هؤلاء الجغرافيين وغيرهم، لم تكن قلعة بني حماد عاصمة سياسية وحسب، بل أصبحت مركزاً اقتصادياً نشيطاً اتسم بازدهار الأنشطة الزراعية والحرفية والتجارية. فقد تحدث الجغرافي ياقوت الحموي: يصف قلعة بني حماد بأنها كانت مدينة كبيرة، كثيرة الأسواق، حسنة الأسواق، ولها سور عظيم، وخندق عميق. كما يذكر أنها كانت عاصمة للدولة الحمادية. ويذكر أيضاً: "ويتخذ بها لبائيد الطيلقان جيدة غاية، وبها الأكسية القلعية الصفيقة النسيج الحسن المطرزة بالذهب، ولصوفها من النعومة والبصيص بحيث ينزل مع الذهب بمنزلة الإبريسم"¹⁶ أما مؤلف الاستبصار فيتكلم عن الرخاء الزراعي لقلعة أبي طویل بقوله: "وهي مدينة عظيمة قديمة أزلية على نظر عظيم كثير الزرع وجميع الخيرات"¹⁷. "ومن جهته أشاد الإدريسي بالرخاء الزراعي لقلعة بني حماد، فقد وصفها في مناسبة أولى بقوله: "ومدينة القلعة من أكبر البلاد قطرا. وأكثرها خلقا، وأغزرها خيرا، وأوسعها أموالا. وأحسنها قصورا ومساكن وخصبا. وحطنتها رخيصة ولحومها طيبة سمينه"¹⁸. "ومما يؤكد أكثر مظاهر هذا التطور الزراعي وعوامله وانعكاسه الإيجابي على الوضع الاجتماعي، هذا الوصف الذي قدمه الإدريسي للقلعة قبل الهجرة الهلالية وفقدانها لدور العاصمة لصالح بجاية. فقد قال عنها: "والقلعة كانت في وقتها وقبل عماره بجاية دار الملك لبني حماد. وفيها كانت ذخائرهم مدخرة. وجميع أموالهم مختزنة ودار أسلحتهم. والحنطة تختزن بها. فتبقى العام والعامين. لا يدخلها فساد. ولا يعتريها تغيير. وبها من الفواكه المأكولة والنعم المنتخبة ما يلحقه الإنسان بالثمن اليسير. ولحومها كثيرة. وبلادها وجميع ما ينضاف تصلح فيها السوائم والدواب لأنها بلاد زرع وخصب. وفلاحتهم إذا كثرت أغنت. وإذا قلت كفت. فأهلها أبد الدهر شباع وأحوالهم

14 ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر . تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريده، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1967، الجزء الرابع، ص 257..

15 نفسه، ص 199.

16 ياقوت الحموي، معجم البلدان . تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1957، الجزء الثاني، مادة "بني حماد"، ص 123.

17 صاحب الاستبصار، المصدر السابق، ص 168

18 الإدريسي، المصدر السابق، ص 255.

صالحة... وأمامها من جهة الجنوب أرض سهلة متصلة الانفراج.¹⁹ ... يبدو من خلال هذه النصوص أن قلعة بني حماد تتميز بترية خصبة ملائمة لإنتاج الحبوب والفواكه، وبكثرة المراعي الطبيعية التي تساعد على تربية الماشية وإنتاج كميات هامة للحوم. وبالتالي فإن غزارة الإنتاج النباتي والحيواني، قد أدت إلى انخفاض الأسعار وتكدس فوائض إنتاج الحنطة وتخزينها. وقد تولد عن هذا الرخاء الاقتصادي رغم كثرة عدد السكان رفاه اجتماعي وتحسن كبير في مستوى العيش ناهيك أن الإنتاج الزراعي يستجيب إلى حاجيات السكان مهما كان ضئيلا، ويعمّ الثراء في صورة وفرة أو، ان أغلبية السكان كانوا من فئة الأغنياء الذين يقطنون أحسن المساكن ويملكون الكثير من الأموال.

2.4 بين التناقض الطبيعي والرخاء الاقتصادي لقلعة بني حماد:

إذا تأملنا في الخصائص الطبيعية والمناخية للقلعة، نتبين أنها لا تتطابق مع هذا الرخاء المتحدث عنه. فقد أقيمت فوق حمادة صغيرة في أسفل جبل تاقريست. وتتميز بترية فقيرة وقليلة الخصوبة باستثناء تربة ضفاف وادي فرج المرتكزة على الري، والتربة على طول الجدول الذي يجري من قرية سيدي محمد الفضل ليصب منسوبا ضعيفا من المياه في وادي فرج. كما يغطي الجبال المحيطة بها غطاء نباتي ضعيف لا يوفر المرعي إلا لقطيع ضئيل من الماشية. وتجعلنا هذه الخصائص الطبيعية غير الملائمة لتعاطي نشاط زراعي كثيف نتساءل عن موارد هذا الرخاء الاقتصادي الذي صوّره لنا مؤلف الاستبصار والإدرسي. رغم وجود حقول خصبة حول أبواب القلعة وتحديدًا على ضفاف وادي فرج تنتج عدّة أنواع من الغلال والفواكه، ورغم ما تمتاز به منطقة الجنان في الجهة الغربية من خصوبة تمكن بفضل عمليات الري من إنتاج كميات هامة من القمح والخضر، يظلّ كافة المنتج الذي توفره هذه الأراضي المجاورة غير كاف لتلبية حاجيات سكان هذه المدينة²⁰ التي اعتبرها الإدرسي "من أكبر البلاد قطرا. وأكثرها خلقا".²¹ فقد كانت القلعة تتزود بما تحتاجه من المدن المجاورة لها حسب ما يستفاد من وصف مؤلف الاستبصار لمدينة نقاوس بكونها: "مدينة كثيرة الأنهار والثمار والمزارع، كثيرة شجر الجوز، منها يحمل الجوز إلى قلعة حماد وإلى بجاية وإلى أكثر تلك البلاد".²²

وبديه القول أن تنوع الأنشطة الزراعية ودور العاصمة السياسية، وكثرة عدد السكان قد ساعد على ازدهار النشاط الحرفي. قال مؤلف الاستبصار: "وتصنع بمدينة قلعة حماد أكسية ليس لها مثل في الجودة والرقة إلا الوجدية التي تصنع بوجدة، يساوي كساء عيد من عمل القلعة 30 دينارا".²³ وبعد أن استولى العرب على القيروان وانحصر ملك الزييين بالمهدية، تحوّل عدد هام من سكان إفريقية للاستقرار بقلعة بني حماد التي أصبحت قطبا تجاريا نشيطا. فقد وصفها البكري بقوله: "وهي قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة. فلما كان خراب القيروان انتقل إليها أكثر أهل إفريقية، وهي اليوم مقصد التجار وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب، وهي اليوم مستقر مملكة صنهاجة".²⁴ وقد اعتبر L. Golvin الذي سلم بمصادقية رواية البكري باعتباره معاصرا للأحداث، أن هؤلاء اللاجئين نحو القلعة ما بين 1055 و 1060م يتكونون من صفوة الحضر، وهم الحرفيين والتجار والعلماء والطلبة الذين صنعوا مجد

19 المصدر نفسه، ص. 261.

20 مراد عرار، المرجع السابق،

21 الادريسي، المصدر السابق، ص. 255.

22 صاحب الاستبصار، المصدر السابق، ص. 172.

23 المصدر نفسه، ص. 170.

24 البكري، المصدر السابق، ص. 133.

القيروان في السابق، قد ساعدوا على بلوغ القلعة أوج إزدهارها وجعلوا منها عاصمة المغرب لكن كان ذلك لمدة وجيزة²⁵ فقد كان لوصول العرب الهلاليين إلى المغرب الأوسط تأثيره المباشر على تطوّر القلعة.

5. نقاط الإتفاق والإختلاف: وقد اختصرناها من خلال هذا الجدول:

الجوانب	ياقوت الحموي	البكري	صاحب الاستبصار	الإدريسي	ابن خلدون
اسم المدينة	القلعة-قلعة بني حماد	قلعة ابي طويل	قلعة ابي طويل/قلعة حماد	مدينة القلعة أو قلعة بني حماد	قلعة بني حماد
الموقع الجغرافي	لها قلعة بنيت فوق قمة جبل.. تقربوست	على جبل مرتفع	في جبل عظيم	متعلقة بجبل عظيم	على جبل مرتفع
التاريخ	//	1007هـ/398م	حماد بن حبوس	بناها حماد بن بلقين	أسسها حماد بن بلقين (1007 م)
المساحة	مدينة كبيرة	//	مبان عظيمة	من اكبر البلاد قطرا واكثرها خلقا	ووسع خططها واستبحر عمرانها
الوصف	يصفها بأنها كانت ، كثيرة الأسواق، حسنة الأسواق هذه القلعة جد محصنة وتقع شرق المدينة	قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة	وهي حصينة منيعة	تقع في سند جبل سامي العلو	فاستبحرت في العمارة واتسعت بالتمدّن. - لنفاق أسواق المعارف والحرف والصنائع بها.
المعالم	ولها سور عظيم، وخندق عميق.	قصر عظيم	وقصور منيعة عالية السناء	استدار سورها بجميع الجبل، ارض سهلة متصلة الانفراج	قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السلام
التحضر	كانت مزدهرة	تحضرت أو تمصرت	كثير الزرع وجميع الخيرات	اوسعها اموالا واحسنها قصورا ومساكن	وتم بناؤها وتمصّرها على رأس المائة الرابعة. - حاضرة لملك آل حماد .
جوانب اختلاف واتفاق الكتابات المصدرية حول قلعة بني حماد. من إنجاز الباحث					

ومن خلال هذا الجدول يتضح مايلي:

- اسم المدينة:

- يتفق جميع الكتاب على أن اسم المدينة هو قلعة بني حماد باستثناء البكري الذي يسميها قلعة أبي طويل.مع أن صاحب الاستبصار يذكر كلا التسميتين.

- الموقع الجغرافي:

- يتفق جميع الكتاب على أن المدينة تقع على جبل مرتفع.
- يحدد البكري والإدريسي الموقع بشكل أكثر دقة، حيث يذكر البكري وياقوت الحموي أنها تقع على قمة جبل تقربوست، بينما يذكر الإدريسي أنها تقع في سند جبل سامي العلو.

- التاريخ:

- يختلف تاريخ تأسيس المدينة حسب المصدر.
- يشير البكري ومعه ابن خلدون إلى أن المدينة أسسها حماد بن بلكين عام 398هـ/1007م..
- يشير الإدريسي أيضا إلى أن المدينة أسسها حماد بن بلقين.
- لا تذكر بقية المصادر تاريخ تأسيس المدينة.

- المساحة:

- تتفق جميع المصادر على أن المدينة كانت كبيرة ومستبحرة العمران.
- يصف الإدريسي المدينة بأنها من أكبر البلاد قطرا.
- ياقوت الحموي يقول عنها بأنها مدينة كبيرة.
- صاحب الاستبصار بأن فيها مبان عظيمة.
- أما ابن خلدون فيقول عن المدينة بأنها استبحرت في العمارة واتسعت بالتمدن..

- الوصف:

- يختلف وصف المدينة حسب المصدر.
- يركز ابن خلدون على وصف ازدهار المدينة ومكانتها السياسية والاقتصادية.
- يركز البكري والإدريسي على وصف الموقع الجغرافي والتضاريس الطبيعية للمدينة.
- يصف ياقوت الحموي المدينة بأنها مدينة كبيرة ومزدهرة. وكثيرة الأسواق.

- المعالم:

- يذكر ابن خلدون بعض المعالم المحددة في المدينة، مثل قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السلام.
- يذكر الإدريسي أن سور المدينة استدار بجميع الجبل.
- ويذكر ياقوت الحموي بأن لها سور عظيم، وخنق عميق
- لا يذكر البكري أي معالم محددة في المدينة.

- التحضر:

- تتفق جميع المصادر على أن المدينة كانت متحضرة ومزدهرة.
- يصف ابن خلدون كيف ازدهرت المدينة منذ عهد مؤسسها، وفي عهد المنصور بن بلكين.
- يصف الإدريسي المدينة بأنها من أوسع البلاد أموالا وأحسنها قصورا ومساكن.
- يصف ياقوت الحموي بأن القلعة بها الأكسية القلعية الصفيقة النسيج الحسن المطرزة بالذهب، ولصوفها من النعومة والبصيص بحيث ينزل مع الذهب بمنزلة الإبريسم.

- الخلاصة:

يقدم الجدول صورة شاملة عن قلعة بني حماد من خلال عرض مختلف جوانبها الجغرافية والعمرانية، كما وردت في كتب الجغرافيين والمؤرخين. كما يحدد هذا الجدول بعض أوجه الاتفاق والاختلاف بين المصادر، مما يسمح لنا بفهم أفضل لأوضاع هذه المدينة الأثرية في سالف العهود.

6. مدى دقة هذه الأوصاف:

قد تتفاوت درجة دقة الأوصاف بين المصادر، يمكن أن يكون لدى المؤرخين دقة عالية في تقديم الأحداث التاريخية، بينما قد يركز الجغرافيون بشكل أكبر على التفاصيل المجالية والمكانية. بحيث أن مدى دقة هذه الأخبار يعتمد أيضا على وقت وزمان كتابة الوصف ومستوى التفصيل الذي توفره المصادر المستخدمة. ويمكن أن يكون عامل تأثير الزمان والمكان والخلفية الثقافية للكتاب دور في دقتها وتفاوتها من مصدر الى آخر ، فقد يحدث لهذه الأوصاف التغير أو التطور مع مرور الوقت، وقد يظهر عامل الاستعانة بمصادر أخرى دور في تغيرها من حيث المضمون والشكل وبصفة عامة، يمكن اعتبار أوصاف المؤرخين والجغرافيين والرحالة لقلعة بني حماد دقيقة إلى حد كبير. فهذه الأوصاف كتبها أشخاص عاصروا القلعة أو زاروها في وقت قريب من بنائها، وكانوا على دراية بموقعها وحجمها وبنيتها التحتية. ومع ذلك، لا بد من أخذ بعض عوامل أخرى في الاعتبار عند تقييم دقة هذه الأوصاف، مثلا:

- أن هذه الأوصاف كتبت بلغة عربية قديمة، وقد تكون بعض المصطلحات أو الأسماء التي استخدمت فيها غير واضحة أو غير دقيقة.

- أن هذه الأوصاف كتبت من منظور ثقافي معين، وقد يكون بعض الوصف قد تم تفسيره بطريقة خاطئة من قبل المؤرخين أو الجغرافيين أو الرحالة العرب.

- إن هذه المعلومات التاريخية والجغرافية: من خلالها يمكن استخلاص معلومات ثرية حول تطورات تاريخية وعمرانية وحتى ثقافية تتعلق بقلعة بني حماد، والميزات الطبيعية المحيطة بها، ويمكن أن تكشف هذه المعلومات عن مجمل التغيرات السياسية والعمرانية التي عرفتتها القلعة في سابق عهدها، وإقرارها أي هذه المصادر على وجود هذه القلعة وحصانيتها على قمة الجبل الى الشرق من المدينة واسمها تقربوس. بما في ذلك العادات والتقاليد والمتغيرات الثقافية على هذا المكان. وربما تقديم رؤى فريدة حول الاستخدامات السابقة والحالية لهذا الأثر التاريخي المهم .

بشكل عام، يمكن اعتبار أوصاف قلعة بني حماد دقيقة إلى حد كبير، حيث تقدم معلومات قيمة حول الموقع والحجم والبنية التحتية والأهمية التاريخية والثقافية لقلعة بني حماد. ومع ذلك، لا بد من أخذ بعض العوامل في الاعتبار عند تقييم دقة هذه الأوصاف، مثل أن هذه الأوصاف كتبت بلغة عربية قديمة، وأنها كتبت من منظور ثقافي معين.

7. المعلومات التاريخية والثقافية التي يمكن استخلاصها من هذه الأوصاف:

تُعد أوصاف المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب لقلعة بني حماد مصدرا مهما لدراسة تاريخ وحضارة المدن المغاربية على العموم والمدن الجزائرية في العصور الوسطى بصفة خاصة. فهذه الأوصاف توفر معلومات قيمة حول الموقع والحجم والبنية التحتية والأهمية التاريخية والثقافية لقلعة بني حماد.

ومن أهم هذه المعلومات التاريخية والثقافية التي يمكن استخلاصها من هذه الأوصاف التي ذكرت في مصادر الكتابات العربية التي تشكل جوانبا هامة للفهم العميق للتاريخ والعمارة والثقافة المترسخة في هذا الموقع التاريخي، يمكننا إظهاره من خلال هذه العناصر:

1.7. المعلومات التاريخية :

1.1.7. 1. سرد الأحداث :

تقدم المصادر العربية فهما للأحداث التاريخية التي جرت في وقت ومكان قلعة بني حماد. يمكن أن تشمل هذه الأحداث الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، والتغيرات السياسية التي حدثت في محيط القلعة. سيتيح ذلك للباحث فهم دور القلعة في السياق التاريخي الأوسع.

2.1.7. التوثيق الزمني:

توفر المصادر المعلومات الزمنية المحددة حول بناء القلعة، التعديلات التي طرأت عليها، والأحداث الرئيسية التي أثرت في تطويرها على مر العصور، وهذا يمكن أن يكشف عن تغيرات الاستخدام والأهمية التاريخية للموقع.

2.7. المعلومات الثقافية:

1.2.7. العمارة والتصميم:

يعكس وصف القلعة في المصادر العربية جوانباً من التصميم المعماري والهندسي، والتي يمكن أن تكشف عن الطرازات الفنية والتقنيات المستخدمة في بنائها. يمكن أن يكون هذا الجانب مؤشراً على التأثيرات الثقافية في إقامة المنشآت العمرانية والعسكرية المختلفة كظاهرة عسكرية المدينة²⁶.

2.2.7. العادات والتقاليد:

قد تحتوي المصادر على معلومات حول العادات والتقاليد المرتبطة بقلعة بني حماد، سواء كان ذلك من خلال الاحتفالات الثقافية أو الأنشطة الاقتصادية اليومية المتعلقة بالحياة في المنطقة. كما قال مؤلف الاستبصار: وتصنع بمدينة قلعة حماد أكسية ليس لها مثل في الجودة ". يساهم ذلك في فهم السياق الثقافي الذي نشأت فيه القلعة.

3.2.7. التأثير الثقافي:

من خلال تحليل المصادر، يمكن تحديد كيف أثرت قلعة بني حماد على الحياة الثقافية في المنطقة. هل كانت مركزاً ثقافياً؟ هل كان لها دور في نقل التقاليد والعلوم؟ هذه الأسئلة تساعد في فهم التأثير الثقافي للموقع. وفيما يلي بعض المعلومات الإضافية التي يمكن استخلاصها من هذه الأوصاف:

3.7. الأهمية التاريخية لقلعة بني حماد كعاصمة للدولة الحمادية:

تشير أوصاف قلعة بني حماد إلى أنها كانت عاصمة للدولة الحمادية، التي كانت دولة إسلامية قوية اتسع حكم أمرائها إلى منطقة أفريقية والمغرب الأوسط في القرن الحادي عشر الميلادي. وقد كان تأسيس قلعة بني حماد حدثاً مهماً في تاريخ المغرب الإسلامي، حيث مثل بداية عصر جديد من الازدهار والتطور في المنطقة.

كانت الدولة الحمادية دولة قوية وطموحة، وقد حرص مؤسسها، حماد بن بلكين، على بناء عاصمة قوية ومميزة، وقد اختار حماد موقعا استراتيجيا لقلعته، مما أعطاها أهمية تجارية وسياسية كبيرة.

26 عمارة علاوة، المرجع السابق، ص 88.

وقد لعبت هذه القلعة أيضا دورا مهما في ازدهار الدولة الحمادية. فكانت القلعة مركزا للحكم والإدارة، واشتهرت فيها القصور والمساجد والأسواق وغيرها، ماجعلها مركزا للتجارة والصناعة والتعلم والتعليم فساهم هذا في جذب العديد من القبائل والعلماء والطلبة إلى القلعة، ما يجعلها مدينة مزدهرة وثرية.

4.7 الإزدهار الاقتصادي والتجاري الذي شهدته قلعة بني حماد في العصر الوسيط:

كانت قلعة بني حماد مركزا مهما للتجارة والصناعة في العصر الوسيط. بسبب موقعها الاستراتيجي الذي يمر عبره العديد من الطرق التجارية شرقا وغربا شمالا وجنوبا، فساهم الازدهار الاقتصادي والتجاري الذي شهدته قلعة بني حماد في ازدهار المدينة وجعلها مدينة مزدهرة. وقد ساعد هذا أيضا في تعزيز مكانة الدولة الحمادية كقوة اقتصادية مهمة في المنطقة²⁷.

5.7 التنوع الثقافي الذي كان سائدا في قلعة بني حماد:

كانت قلعة بني حماد مدينة متنوعة ثقافيا. ففي القلعة، كان يعيش المسلمون واليهود والمسيحيون جنبا إلى جنب، وكانوا يمارسون شعائهم الدينية بحرية. كما كانت القلعة تضم العديد من المؤسسات التعليمية والثقافية، مثل المدارس والجامعات والمكتبات، مما يدل على الاهتمام بالعلم والثقافة في المدينة.

وقد كان التنوع الثقافي الذي كان سائدا في قلعة بني حماد انعكاسا للتنوع الثقافي الذي كان سائدا في شمال إفريقيا في العصر الوسيط. وقد ساهم هذا التنوع في إثراء الثقافة الإسلامية في المنطقة وجعلها أكثر شمولاً.

6.7 الإهتمام بالعلم والثقافة في قلعة بني حماد:

كانت قلعة بني حماد مدينة ثقافية مهمة في العصر الوسيط. وقد كان هذا الإهتمام بالعلم والثقافة انعكاسا للإهتمام الكبير الذي كان سائدا في الدولة الحمادية بالعلم والثقافة.

وقد ساهم الإهتمام بالعلم والثقافة في قلعة بني حماد في ازدهار المدينة وجعلها مركزا مهما للعلم والثقافة في شمال إفريقيا. كما ساهم هذا أيضا في نشر العلم والثقافة في المنطقة وجعلها أكثر تقدماً.

وبشكل عام، تُعد أوصاف المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب لقلعة بني حماد مصدرا مهما للباحثين في مجال التاريخ والآثار، حيث تساعد على فهم وتفسير بقايا القلعة التي تم اكتشافها حتى الآن. واستخلاص تصور شامل حول قلعة بني حماد. تلك المعلومات ستوفر رؤية قيمة للباحثين والمهتمين بفهم التاريخ والثقافة في هذا السياق الفريد، مما يساهم في إلقاء الضوء على الأبعاد المختلفة للقلعة.

27 صالح يوسف بن قرية، المرجع السابق، ص 538.

8. خاتمة:

ومما سبق نستطيع القول بأن ما قدمته لنا الكتابات العربية من معلومات قيمة عن هذه القلعة، سيساعدنا على فهم تاريخها وأهميتها من خلال معطياتها على شاكلة أن قلعة بني حماد كانت مدينة كبيرة ومزدهرة، وذات موقع استراتيجي هام. كما أشارت إلى أن المدينة كانت مركزا هاما للتجارة والثقافة، وأنها ضمت العديد من القصور والمساجد والأسواق. وبالرغم من اختلافاتها في بعض التفاصيل، مثل تاريخ تأسيس المدينة وبعض أوصافها، لكن يُظهر تحليل أوجه الاتفاق والاختلاف في الكتابات العربية حول قلعة بني حماد عن أهمية البحث المقارن بين المصادر المختلفة لفهم التاريخ والجغرافيا والعمارة بشكل أفضل. كما تُظهر هذه الدراسة أهمية قلعة بني حماد كمعلم تاريخي وأثري هام يستحق المزيد من البحث والدراسة حول أوصاف قلعة بني حماد من خلال الكتابات العربية، وذلك بهدف:

- تحديد المزيد من نقاط الاتفاق والاختلاف بين هذه الأوصاف.
- تقييم مدى دقة هذه الأوصاف بشكل أكثر دقة.
- استخلاص المزيد من المعلومات التاريخية والثقافية من هذه الأوصاف.

9. المراجع البيبليوغرافية:

- ابن حوقل، صورة الأرض، ليدن، 1927، ص 66-83.
- ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق عبد الله العروي، دار الفكر، بيروت، 1967.
- الإدريسي أبي عبد الله، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، م1، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1989.
- البكري، المسالك والممالك ، ت زينب الهكاوي، مطبعة رباط، 2012. ص 133.
- شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج2، ت محمد مزالي، الدار التونسية للنشر. 1983.
- صاحب الاستبصار، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، ت زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية، بغداد.
- صالح يوسف بن قرية، ابحاث ودراسات في تاريخ واثار المغرب الاسلامي وحضارته، دار الهدى، الجزائر، 2011.
- عمارة علاوة، دراسات في التاريخ الوسيط والغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008.
- مراد عرعار، قلعة أبي طويل (بني حماد) من خلال ثلاثة مصادر جغرافية (البكري، الإدريسي، كتاب الاستبصار) كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، <https://www.academia.edu>.

- Abd, El-Raoof., Reem, Wagdy, Moustafa, Kamel. "Travel Literature Illustrations and Topography and Their Role in Documenting the Islamic Arabic Identification and the Geopolitical Alterations of Jerusalem City." null (2021):79-109. doi: 10.1007/978-3-030-14869-0_6